# الفصل الأول

## الرجل والدروس

إن **سوسير** شخصية مثيرة ومحيرة؛ لأنه عاش حياة لم تعرف الصخب. وفى حدود ما نعرف نستطيع أن نقول إنه لم يمر بأى أزمة عقلية باهظة، أو أى لحظات استبصار أو انقلاب حاسمة، أو أى مغامرات شخصية بالغة الأهمية؛ ورأيه المتواضع فى تفكيره، وإن كان هذا التفكير جريئاً لا تسامح فيه، يجعل من الصعب للغاية تتبع أصله فى حياته العقلية الباكرة، كما تبدو حقيقة أن عمله الأساسى كان ينبغى أن يظل غير مكتوب هى الذروة فى هذه السيرة المبهمة.

وقد كان **سوسير**، الذى ولد فى **جنيف** فى عام ١٨٥٧، بعد مولد **فرويد** بسنة، وقبل مولد **دوركايم** بسنة، ابناً لعالم طبيعى عظيم الشأن وعضو فى أسرة ذات تراث رصين من الإنجاز فى مجال العلوم الطبيعية. وقد وجهه إلى الدراسات اللسانية وهو فى سن مبكرة **أدولف پيكتيت**، عالم اللغة وصديق الأسرة. وحين بلغ **سوسير** سن الخامسة عشرة، بعد أن كان قد درس اليونانية لكى يضمها إلى معرفته بالفرنسية والألمانية والإنجليزية واللاتينية، حاول أن يصل إلى «نظام عام للغة»، وكتب **لپيكتيت** «مقالاً عن اللغات» ذهب فيه إلى أن اللغات جميعاً تضرب بجذرها فى نظام قائم على حرفين أوثلاثة من الحروف الساكنة الأساسية. ولابد أن يكون **پيكتيت** قد تبسم من التبسيط المفرط فى هذه المحاولة الشابة، ولكنه لم يثبط همة صنيعه الذى أخذ يدرس السنسكريتية وهو بعد تلميذ فى المدرسة.

وفى عام ١٨٧٥ دخل **سوسير** جامعة **جنيف**، ولكنه سُجل – وفقاً للتقليد الأسرى – طالباً لدراسة الطبيعة والكيمياء، وإن ظل منتظماً فى دروسه الخاصة بنحو اللغة اليونانية واللغة اللاتينية. وقد أقنعته هذه التجربة بأن حياته العلمية متعلقة بدراسة اللغة؛ فهو لم

يكتف بالاشتراك فى جمعية للمشتغلين باللغة، هى **جمعية باريس اللغوية**، بل حث والديه، حين شعر بأن السنة الأولى التى قضاها فى **جنيف** ضاعت سدى، على أن يرسلاه إلى جامعة **لايبتسج** لدراسة اللغات الأوروبية الهندية.

وكانت **لايبتسج** اختياراً سعيداً؛ فقد كانت مركزاً لمدرسة تضم علماء اللغة الجدد ذوى النزعة التاريخية، يطلق عليها اسم مدرسة فقهاء اللغة الجدد (Neogrammarians) Junggrammatiker، ووجد **سوسير** نفسه قادراً على أن يتبادل الخواطر مع أكثر علماء اللغة إبداعاً فى زمانه. ولاشك فى أن إحساسه بقدراته الخاصة قد تأكد عندما استكشف واحد من أساتذته فى **لايبتسج** هو **كارل بروجمان** Karl Brugmann، ما يسمى قانون **جرس الصوت الأنفى** nasal sonans، الذى كان **سوسير** قد توصل إليه قبل ذلك بعدة سنين، ولكنه رفضه لتعارضه مع فروض علماء اللسان المرموقين.

وقد أقام **سوسير** فى **لايبتسج** أربع سنوات، باستثناء ثمانية عشر شهراً قضاها فى برلين. وعندما بلغ سن العشرين فى عام ١٨٧٨ نشر **مذكرة عن النظام البدائى لحروف اللين فى اللغات الأوروبية الهندية** Mémoire sur le systéme primitif des voyelles dans les langues indo-européennes سماها أحد علماء اللسان «أروع عمل ظهر على الإطلاق فى فقه اللغة المقارن». وسوف نناقش فكرة هذا العمل ونتائجه فيما بعد، ولكن أشد ما فى الأمر إثارة هو أن عالم اللسان الشاب كان عليه أن يهجم على مشكلة عريضة وأساسية فى العلوم اللسانية التاريخية، وأن يؤكد أهمية المشكلات المنهجية. وقد كتب فى المقدمة يقول: «إننى لا أجيل الفكر فى أمور نظرية مستغلقة، ولكننى أبحث فى أسس الموضوع ذاتها، التى يصبح كل شىء بدونها غير مستقر، واعتباطياً، وغير يقينى».

وقد استقبلت المذكرة فى أنحاء كثيرة استقبالاً حسناً. وعندما عاد **سوسير** من برلين إلى **لايبتسج** سأله أحد الأساتذة عما إذا كان ينتسب على أى نحو إلى **سوسير** عالم اللسان السويسرى العظيم وصاحب المذكرة. ومع ذلك يبدو أن **سوسير** قد وجد **ألمانيا**

غير ملائمة له؛ ومن ثم فإنه رحل إلى **باريس** بعد أن وقف للدفاع عن رسالته فى موضوع استخدام حالة الإضافة فى اللغة السنسكريتية (التى منح عليها درجة الدكتوراه بامتياز).

وفى **فرنسا** لقى **سوسير** نجاحاً ملحوظاً؛ فقد بدأ بعد وصوله إليها بقليل فى تدريس اللغة السنسكريتية والقوطية، والألمانية الراقية القديمة، فى المدرسة العملية للدراسات العليا. وبعد عام ١٨٨٧ وسع **سوسير** من نشاطه التعليمى ليشمل فقه اللغة الأوربى الهندى، بصفة عامة. كذلك كان له نشاطه فى **جمعية باريس اللغوية**، كما كان له تأثير إنشائى أساسى على الجيل الجديد من علماء اللسان الفرنسيين. ولكنه قرر العودة إلى **سويسرا** فى عام ١٨٩١ عندما منح كرسى الأستاذية فى جامعة **جنيف**، ولم يفلح فى إبقائه فى **باريس** ذلك الشرف الذى أسبغه عليه زملاؤه الأقدم حين جعلوه يحمل اسم **فارس وسام الشرف** Chevalier de La Légion d'Honneur.

وفى **جنيف** كان تلاميذ **سوسير** أقل عدداً وأقل تقدماً فى الدراسة؛ وكان يعلمهم السنسكريتية والعلوم اللغوية التاريخية بصفة عامة. وقد تزوج، وأنجب ولدين، ونادراً ما خرج للسفر، وبدا كما لو كان قد استقر فى شرنقة من العزلة المريحة. وتناقصت كتابته شيئاً فشيئاً، ثم صار لا يكتب إلا على مضض وبعد لأى. وهو فى خطاب له يرجع إلى عام ١٨٩٤، ويمثل وثيقة من الوثائق الشخصية الكاشفة التى نملكها الآن، يشير إلى مقال كان قد دفع به أخيراً إلى أحد الناشرين، ثم يستأنف قائلاً:

> **لم يعد لى صبر على هذا كله، وعلى ما ألاقى من صعوبة عامة فى أن أكتب حتى عشرة أسطر فى مسائل لغوية تكون جيدة المعنى، وعلى مدى زمن طويل كنت مشتغلاً قبل كل شىء بالتصنيف المنطقى للحقائق اللغوية، وبتصنيف وجهات النظر التى نعالجها بها. وأنا على وعى يتزايد يوماً بعد يوم بالقدر الهائل من العمل الذى يتطلبه تعريف المشتغل بالعلوم اللغوية طبيعة عمله... وإن القصور التام فى المصطلح الحالى، والحاجة إلى إصلاح شأنه، ثم تبيان نوع الموضوع الذى تمثله اللغة، وذلك من أجل إنجاز ذلك**

**الإصلاح - كل هذا يفسد على نحو متصل ما أجده فى فقه اللغة من متعة، وإن لم تكن لدى رغبة أعز من ألا أوضع فى موضع التفكير فى طبيعة اللغة بصفة عامة. وسوف يفضى هذا - على الضد من إرادتى - إلى وضع كتاب أشرح فيه بغير حماسة أو انفعال لماذا لا أجد معنى لأى مصطلح من المصطلحات المستخدمة فى مجال العلوم اللغوية. واعترف بأنه عندما يتم هذا سأكون قادراً على استئناف عملى من حيث توقفت(١).**

ولكنه لم ينجز هذا الكتاب قط. لقد اشتغل بالأساطير اللتوانية، وبأساطير المانيا فى العصور الوسطى، وبنظرية تذهب إلى أن الشعراء اللاتينيين أخفوا فى أشعارهم بعض التقاليب والتباديل التى تتعلق بأسماء أشخاص حقيقيين. ولكنه فى عام ١٩٠٦، وفى مناسبة تقاعد أستاذ آخر، أسندت إليه الجامعة مسئولية تدريس علوم اللغة العامة؛ ومن ثم ألقى فى السنوات التى أعقبت هذا (١٩٠٧، ١٩٠٨ - ٩، ١٩١٠ - ١١) المحاضرات التى صارت فى نهاية المطاف **دروساً فى علم اللغة العام**. وفى الصيف من عام ١٩١٢ أصابه المرض، وفى فبراير من عام ١٩١٣ لقى ربه، وقد بلغ من العمر ستة وخمسين عاماً.

وعلى الرغم من أن مسيرة **سوسير** قد أصابت حظًّا كبيراً من النجاح فإنها لم تكن بحال من الأحوال غريبة فى بابها. وقد كان من الممكن أن تضمن له كتاباته المنشورة مكاناً محترماً فى تاريخ فقه اللغة، ولكنه مكان يعادل تقريباً مكان فقهاء اللغة الجدد المهمين، أمثال **بروجمان** Brugmann، **وفرنر** Verner، الذين لا يعرفهم اليوم سوى علماء اللغة. ولحسن الحظ أن تلاميذ **سوسير** وزملاءه فكروا فى ضرورة الحفاظ على عمله فى ميدان علم اللغة العام، فصنعوا المجلد الذى يجعل منه مفكراً أصيلاً.

ولم يكن ذلك بالعمل الهين؛ **فسوسير** لم يحتفظ - فيما يرويه شارل بالى Charles

(١) خطابه المؤرخ فى ٤ يناير ١٨٩٤، المنشور فى:
"Lettres de F. de Saussure à Antoine Meillet", Cahiers Ferdinand de Saussure, 21 (1964), 95.

Bally، **وألبرت زيشيهاى** Albert Sechehaye فى مقدمتهما **للدروس** – إلا بالقليل من المذكرات؛ فكان عليهما أن يستخدما فى عملهما المذكرات التى قيدها الطلبة الذين حضروا له سلاسل محاضراته المختلفة. ولكن حتى عندما تم الحصول (عن طريق المقابلة بين المذكرات ومقارنتها) على فكرة تقريبية عما قيل فى كل سلسلة مكونة من ثلاث محاضرات، ظلت هناك مشكلة رئيسية. ذلك بأن نشر مخطوطات كل السلاسل على ما هى عليه كان سينطوى على تكرار هائل (ودعنا من التعارضات)، ولكن نشر سلسلة واحدة كان معناه حذف الكثير، مادام يبدو أن **سوسير** قد ألف كل سلسلة من الدروس تأليفاً جديداً وفقاً لخطة مختلفة. وعندما واجه **بالى وزيشيهاى** هذه المشكلة، وهما زميلان **لسوسير** لم يحضرا بنفسيهما محاضراته، واتخذا قراراً جريئاً كان مسئولاً إلى حد بعيد عما كان **لسويسر** من تأثير؛ فقد قررا أن يؤلفا عملاً موحداً، وأن يجتهدا فى تحقيق بنية مركبة، مع التسليم **بالأولوية** للسلسلة الثالثة من الدروس، ولكن مع الاعتماد الشديد على مادة مأخوذة من السلسلتين الأخريين، وعلى مذكرات **سوسير** الشخصية.

إن معظم المعلمين ليرتجفون إذا خطر لهم أن آراءهم عوملت بهذه الطريقة؛ وإنه حقًّا لمن غير المألوف أن ينتج هذا الإجراء الذى لا يرجى منه خير، الحافل بإمكانات سوء الفهم والتسامح – أن ينتج عملاً كبيراً، ولكن الحقيقة القائمة تقول: إن **دروس علم اللغة العام** على نحو ما صنعها **بالى وزيشيهاى**، هى مصدر ما أحدثه **سوسير** من تأثير، وما أحرزه من شهرة، ولم يكن من الممكن تجاوز النص المركب إلى مدى بعيد للغاية إلا فى عام ١٩٦٧، عندما بدأ **رودلف إنجلر** Rudolf Engler فى نشر مذكرات الطلبة التى ركبت منها **الدروس**. لقد كانت هى **الدروس** نفسها، التى أثرت فى الأجيال المتعاقبة من علماء اللغة.

وتطرح علينا هذه الحقيقة مشكلة من نوع ما للمناقشة؛ فمن ناحية نجد أن أهمية **سوسير** فى علم اللغة وفى الحقول المعرفية الأخرى هى أقل اعتماداً على ما فكر فيه حقًّا، منها على ما تشتمل عليه **الدروس**. ومن ناحية أخرى فإن سهولة الحصول على مذكرات

الطلبة يحرك فى المرء الرغبة فى إبراز المواضع التى يبدو فيها أن المحررين قد منحا نفسيهما الحرية، أو أخطآ الفهم، أو زيفا فكر **سوسير**. لقد قاما فى العموم بعمل رائع، ولكن هناك سبب قوى لتقرير انهما كانا فى حالات ثلاث أقل نجاحاً مما قد يتوقع المرء منهما: فمن المحتمل ألا يكون نظام عرضهما هو ذلك الذى ربما اختاره **سوسير**، وأنه – من ثم – لا يعكس السياق المنطقى القوى لتفكيره؛ وأن فكرة الطبيعة الاعتباطية للعلامة تظفر على أيديهما بمناقشة أقل كثيراً مما هى عليه فى المذكرات؛ وأن المحررين عند مناقشتهما للمستوى الصوتى للغة كانا أقل تدقيقاً واتساقاً فى مصطلحاتهما، مما كان الأمر عليه عند **سوسير**؛ وهذه مسائل مهمة لا يملك المرء إهمالها كلية. ومن ثم فإننى فى المناقشة الآتية، وإن كنت سأشغل نفسى بصفة مبدئية **بالدروس** نفسها، سأحاول بين الفينة والأخرى، وبخاصة من خلال نظام العرض، أن أعيد بناء ما أرى أنه منطق تفكير **سوسير** على نحو أدق، إن الاهتمام الأساسى ينصب على التعاليم **السوسيرية** فى **الدروس**، وعلى موقعها من تاريخ علم اللغة؛ ولكننى فى عرضى لنظرية **سوسير** فى اللغة، التى نتوجه إليها الآن، لن أتردد فى تصحيح هفوات المحررين الأصلية العارضة.